العقيدة الإسلامية

إذا سألت فاسأل الله

الشيخ محمد بن عبد الله المقدي

وقف (عماد) يتأمل المناظر الطبيعية الخلابة التي تظهر له وهوعلى ظهر السفينة التي تقلّه مدعوا لرحلة ترفيهية مع صديقه المقرب (كريم)، وبينما هو مستند إلىحاجز السفينة وقد بهرته روعة تلك المشاهد الخلابة التي تنطق بعظمة الخالق المبدع ـ سبحانه وتعالى ـ أغراه جمال المنظر أن يميل بجسده أكثر إلى الأمام ليتمكن من رؤية السفينة وهي تمخر عباب البحر وقد كانت سفينة صغيرة جميلة الشكل.

وفجأة جاءت موجة عنيفة اهتزت معها السفينة اهتزازا شديدا فاختلّ توازن (عماد) وحدثت المصيبة. سقط (عماد) في قلب المحيط، وتعاظمت المصيبة، فـ (عماد) لا يحسن السباحة، صرخ طالبا النجدة حتى بحّ صوته، وظل يصارع الموج دون جدوى، وبدأ ينادي بصوت يشبه هزيم الرعد: يا جيلاني! يا شاذلي! يا دسوقي! يا محضار! علّهم يستطيعون إنقاذه، وبينما هو يصارع تلك الأمواج العاتية وينادي بأعلى صوته؛ إذ رآه (محب) وهو رجل كهل تعلوه المهابة، في الخمسين من عمره، كان مسافرا معه على ظهر تلك السفينة، وعلى الفور أطلق جهاز الانذار ثم رمى نفسه في الماء لإنقاذ عماد.

وبسرعة دبّ النشاط والحركة في جميع أركان السفينة، وهرول المسؤولون وتجمّع المسافرون على ظهر السفينة يرقبون المشهد ويبادرون بالعون والمساعدة، فألقوا قوارب النجاة إلى المياه، وتعاونت فرقة الإنقاذ مع الرجل الشهم على الصعود بـ (عماد) إلى ظهر السفينة، وتمت عملية الإنقاذ بعون الله تعالى، ونجا (عماد) بقدر من الله من موت محقق، وتلقّفه صديقه (كريم) معتنقا إياه، ثم انطلق يبحث حوله عن ذلك الرجل الشجاع الذي جعله الله ـ تعالى ـ سببا في إنقاذ حياته، فوجده واقفا في ركن من أركان السفينة يجفف نفسه، فأسرع إليه (عماد) واعتنقه وقال: لا أدري كيف يمكنني أن أشكرك على جميلك معي؟ لقد أنقذت حياتي، فابتسم

الرجل ابتسامة هادئة ونظر في الأفق (١) متأملا، ثم التفت إلى (عماد) وخاطبه قائلا:

(يا بني! حمدا لله على سلامتك، ولكن أرجو أن تساوي حياتك ثمن بقائها).

تعجّب (عماد) من هذه الكلمات، ونظر إلى الرجل مستوضحا معنى كلامه، استمر الرجل في كلامه قائلا: (لقد سمعتك وأنت تصارع الأمواج العاتية تنادي الجيلاني والدسوقي وغيرهما كي ينقذوك، فعلمت أنك بحاجة إلى الإنقاذ!).

عماد: وما المشكلة في الاستغاثة بهم، أليسوا هم أولياء الله الذين يغيثون من أصابه الكرب والضيق والغرق وقد استجابوا لندائي وأرسلوك لإنقاذي؟ تبسم (عماد) عند هذه الكلمة.

بدأ على (عماد) التحمس الشديد لمواصلة النقاش مع ما أصابه في هذا اليوم الصعب من متاعب، بادَرَه (محب) بقوله: لماذا لا تؤجل هذا الحديث إلى وقت لاحق كي تأخذ قسطا من الراحة، ثم نواصل حديثنا إن شئت؛ فالوقت أمامنا طويل؟ وافق (عماد) وهو يتحسس أعضاءه التي أصيبت بمواجع وآلام رهيبة.

في عصر اليوم نفسه التقى (عماد) و (محب) على ظهر السفينة، وبدأ (عماد) بحال جيدة، بادره (محب) بقوله: لعلك أخذت قسطا من الراحة؟ هزّ عماد رأسه موافقا مرددا: الحمد لله .. الحمد لله.

بادر عماد (محبا) بقوله: لقد تذكرت حديثا يتصل بما تكلمنا عنه سابقا.

محب: ما هو؟

عماد: قوله ﷺ: "إذا تحيّرتم في الأمور؛ فاستعينوا بأصحاب القبور"، أتردّ هذا الحديث؟

محب: لا يجوز لأحد من المسلمين أن يردّ حديث رسول الله ﷺ طالما أن الحديث صحيح.

ولكن إذا تأملت في هذا الحديث فإنه موضوع بإجماع المحدثين؛ كما أنه مخالف للقرآن الكريم لأن الاستعانة طلب العون، وفي سورة الفاتحة يعلمنا الله ــ تعالى ــ بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: ٥) فهذا أسلوب يفيد الحصر؛ فإن الاستعانة لا تكون إلا بالله وحده، أي: فلا يُلتمس عون من أي شيء إلا من الله سبحانه، وعليه؛ أفلا يكون هذا القول السابق

(١) الفكرة مقتبسة من كتاب صناعة الهدف، هشام عبد العزيز، وصويان الهاجري، من إصدارات موقع مفكرة الإسلام (بتصرف يسير).

معارضا للقرآن الكريم؟

ألسنا نقرأ الفاتحة في كل صلاة ونستحضر هذا المعنى لسبب ما؟

يا صديقي عماد! إن هذا القول لم يسمعه أحد من الصحابة منه ﷺ، ولم يوجد من قال بمثله في زمان الصحابة ولا التابعين، ولم ينقله أحد من المصنفين في الحديث الصحيح.

عماد: لكنه موجود في كتاب (كشف الخفاء) للعجلوني، وهو صاحب مكانة كبيرة في الحديث.

محب: قولك صحيح، لكن "كشف الخفاء" صنّفه العجلوني ليميز الحديث الصحيح من الضعيف ومن الموضوع، مما اشتهر على ألسنة الناس من الأحاديث، لهذا كثرت فيه الأحاديث الموضوعة، وما على الذين وضعوه إلا أن يتوبوا إلى الله تعالى.

عماد: إذن الحديث موضوع! قال عماد هذه الكلمة وبدأ كأنه مستغرق في شيء ما؛ وفجأة بادر محبا بقوله:

ولكن ما قولك في قوله ــ تعالى ــ ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ (القصص: ١٥)؟ ففي هذه الآية الكريمة دليل ظاهر علىجواز الاستغاثة بالأموات والغائبين حينما تصيب الإنسان الأضرار والشرور.

محب: أفهم منك أخي أنك لا تميز بين الاستغاثة الجائزة والاستغاثة الممنوعة.

عماد: وهل ثمة فرق بينهما؟

محب: التفريق بينهما ظاهر وجلي وقد ذكره جملة من العلماء؛ فالاستغاثة الجائزة هي الاستغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه من الأمور الحسية في قتال أودفع ضرر، أما الاستغاثة الممنوعة فهي محصورة بالاستغاثة بالغائب من الشدائد كالمرض وخوف الغرق وهي الحالة التي كنت بها قبل قليل.

وهنا تحرك محب وعماد إلى ركن قصي من السفينة وجلسا على مقعدين متقابلين.

عماد: لكن ألسنا نستعين بالإنسان الحي؟ وهكذا روح الولي الميت، هي كالسيف المسلول من غمده، فهو أكثر قدرة على الإعانة، وهؤلاء الأولياء ذوو قدرة كبيرة على التصرف.

المحب: أخبرني من الذي أنبأك أن روح الولي كالسيف المسلول؟ ما سند هذا القول من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟

رسول الله ﷺ المتوفى نصلي ونسلم عليه كلما ذكرناه أو زرنا قبره، أما أن ندعوه فهو مخالفة صريحة للشرع؛ إذ ما الفرق بيننا وبين النصارى الذين يدعون نبي الله عيسى بن مريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ من أجل نصرهم؟ ليس لهذا معنى سوى اتباع سبيل هؤلاء.

أما ما ذكرته بأن الولي إذا مات صار أكثر قدرة على التصرف والإعانة فليس عليه دليل؛ لأن الله عالم الغيب والشهادة قد بيّن لنا في كتابه الكريم بطلان ذلك، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ (الزمر: ٤٢) فهذه الآية تدل على أن الله يمسك الأرواح في مكان ما في البرزخ.

أما عن الموتى، فقال ــ تعالى ــ: ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (فاطر: ٢٢)

وهذا عيسى بن مريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول في الآخرة كما قال الله تعالى عنه: ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ (المائدة: ١١٧).

فإذا كان رسول الله المسيح عيسى بن مريم ــ عليه السلام ــ نفسه لا علم له بما أحدثت أمته من بعده، فكيف يُقبل أن تكون روح الولي كالسيف المسلول من غِمده؟

إن الله قد بيّن كل ذلك في آية فاصلة، هي قوله ــ سبحانه ــ: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ (الأحقاف: ٥).

بدا الإنصات الكامل على عماد، فها هو يسمع كلاما شافيا من القرآن العظيم، أنصت طويلا وسكن سكونا تاما وهو يتأمل هذه الآيات الكريمات، وكيف لم تستوقفه أثناء تلاوته القرآن التي هو حريص عليها كل الحرص.

عاد (محب) بمقعده إلى الوراء قليلا وقال ملاطفا (عمادا) ومحترما سكونه: دعني أطلب لك شايا تجدد به نشاطك.

ذهب (محب)، وعينا (عماد) ترمقه وهو يقول في نفسه: أحق ما يقول، أم هو الباطل عينه؟ إنه يذكر آيات محكمات .. ولكن.

اصطرعت في ذهنه أفكار شتى، وأحس أن الأرض بدأت تدور به، أفاق ومحب واقف

بجانبه وعلى وجهه ابتسامة عريضة وفي يديه كوبان من الشاي.

رشف عماد من كوبه رشفة وبدا كأنه يريد أن يلقي بشيء إلى محب فقال له:

عمتي تزوجت منذ زمن بعيد ولم تنجب أطفالا، وقد زارت كل مصحة سمعت بها من غير فائدة تذكر، وحينما ذهبت إلى قبر الجيلاني رزقت بولد جميل؛ ألا يدل هذا على قوة تصرف الأموات؟

أجاب محب بكل هدوء: ألم يخبرنا النبي ﷺ عن عمل الإنسان بعد موته قائلا: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله الا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (١)، فالجيلاني – رحمه الله – انقطع عمله بنص كلام النبي ﷺ، ورزق ربك لعمتك الولد هو فضل ينبغي عليك أن ترده إليه – سبحانه – لا إلى قبر الجيلاني، فكل هذه الأعمال يستمر ثوابها حتى بعد الموت، وإلا فلم يبق له أي عمل بعد وفاته.

ولو تأملت قليلا:

هل يقدر الأموات على ما لم يقدر عليه الأحياء؟ والله – تعالى – يقول: ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (فاطر: ٢٢).

وما أسوأ أن يقص الإنسان على الناس الأعمال التي لا أصل لها من حيث تحققها سوى أن رآها فاعلوها حسنة في أعينهم فأكبروها لتعظيم من زينها لهم من البشر.

إن من ذهب به إلى القبر فشفي، فلعله شُفي حقا، أما أن يكون الميت وسيلة يستشفى به فهذا ما لا يمكن قبوله أبدا. وها نحن نرى أتباع الطريقة القادرية يغرزون السكاكين في أبدانهم ويحسبه بعض الناس كرامات خُص بها القوم، وكذا الهنود، فهم معروفون بإنفاذ السيوف في أجسادهم، ويغرزون في خدودهم قصباتٍ سمكها كخشب المطارق حتى تنفذ من الشق الآخر، فلو كان صنيع القادرية كرامات لوجب أن ينسب هؤلاء الهنود إلى فعل المعجزات.

والحقيقة أنه لا علاقة لأفعال أحد من الفريقين بالدين، بل يجب تنزيه الدين عن مثل هذه الأفعال.

(١) أخرجه مسلم كتاب الوصية رقم ٣٠٨٤.

عماد: ولكن الشيخ عبد القادر الجيلاني في بعض شعره يقول:

مريدي إذا ما كان شرقا ومغربا أغيثــه إذا ما صــار في أي بلدة

وقد شهدت بعض الحالات التي استغاث المريد فيها بشيخه فتمثل له وأنقذه مما هو فيه من كرب وضيق.

محب: إن كلامك هذا تنقضه الآيات القرآنية، حيث قال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ما تذكرون﴾ (النمل: ٦٢)، فإذا ما ظهرت للمرء حاجة فسأل قضاءها من غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكيف له أن يشعر بوجوب التجائه إلى الله سبحانه وتعالى؟

ومن ناحية ثانية فإن أكثر ما يُذكر عن هؤلاء الشيوخ غير صحيح، والشعر المذكور آنفا نعده من هذا القسم، فإذا كان قد اختلق الكذب بالآلاف من الأحاديث على رسول الله ﷺ؛ فكيف لا يُكذب على عبد القادر الجيلاني أو الجنيد أو الإمام الرباني؟ ولو فرضنا أن عبدالقادر الجيلاني جاءنا وذكر لنا هذا الشعر لم نسلم له به معتذرين عنه بقلة علمنا إلى جانب علمه، بل نرده عليه غير مترددين؛ لأننا سنحاسب يوم القيامة عن القرآن وليس عن عبد القادر الجيلاني.

عماد: ألا يستعين الناس بعضهم ببعض؟ فكيف لا يستعان بغير الله إذن؟

المحب: توجد العديد من الآيات والأحاديث التي تحثّ على التعاون والتناصر، لكن والكل يعلم أن طلب المعونة من الأموات تختلف عما نحن فيه؛ فبعض الناس يستعينون بهم في المواضع التي يجدون أنفسهم عاجزين عنها، فيدعونهم لدفع ضر أو جلب مصلحة متخذين وسائل خارقة للعادة.

وأضرب مثلا: واجه بعض الناس سيلا جارفا وهم ركوب في سياراتهم، فدعا أحدهم الرفاعي قائلا: "يا سيدنا يا رفاعي! يستعين به، ولو أن هذا الداعي سأل الله العليم البصير الخبير الذي لا يخفى عليه شيء لكان قد أحسن الصنع، ولكنه يسأل السيد الرفاعي الذي يرقد في قبره؛ فهذا يعني أنه يؤمن بأن الرفاعي قادر على سماع دعائه والمجيء إلى ذلك المكان وإعانته فورا، فهذا الداعي يتخيل في الرفاعي بعض الصفات التي هي فوق صفات البشر، منها: الحياة والعلم والسمع والبصر والإرادة والرحمة والقدرة، والحياة خلاف الموت، فلو لم يكن يعد الرفاعي

حيا لما دعاه أو سأله المعونة، ولو كان هذا الفعل صوابا لفعله صحابة محمد ﷺ مع وقوعهم في المضائق والكربات، ومع هذا لم يذكر عن أحد منهم أنه استغاث بالنبي ﷺ.

تقطب جبين عماد حين سماعه لهذه الكلمات وقال معارضا: من المعلوم أن النبي ﷺ يغيث أمته ويلتقي بالصالحين منهم.

المحب: أخي! من الذي جعل هذا معلوما؟

رسولنا ﷺ بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وهو يقول فيما ذكره الله على لسانه: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ (الأعراف: ١٨٨) وجسده الشريف في قبره لا يخرج منه إلى يوم القيامة.

عماد: ما الدليل على هذا؟ بل النبي ﷺ يخرج من قبره ليغيث أمته.

محب: الدليل قول الله ــ تعالى ــ: ﴿ثم انكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ (المؤمنون: ١٥ ــ ١٦) وثم للتعقيب أي أننا نموت وبعدها نبعث من غير فصل، والخطاب عام فيشمل المرسلين وغيرهم.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ أنه كان يقول: لقيني رسول الله ﷺ ، فقال لي: "ما لي أراك منكسرا؟ فقلت: يا رسول الله! استشهد أبي وترك عيالا ودينا، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك كفاحا، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك، فقال: يا رب! تحييني فأقتل فيك ثانية، فقال الرب: إنه سبق مني: أنهم إليها لا يرجعون". (١)

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ قال: "إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة". (٢)

وقال رسول الله ﷺ: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عليّ" قالوا: يا

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن رقم ٢٩٣٦، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه، كتاب الجهاد رقم ٢٧٠٩.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

رسول الله! وكيف تُعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت؟ يقولون: بليت، قال: "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء" (١) فهذا الحديث يدل على أن أجساد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا تفارق قبورهم.

والقول بأنه يخرج من قبره ليغيث الأمة فيه مخالفة صريحة لكلام الله جل وعلا، ألم يقل الله تعالى: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (غافر: ١١).

فخروج النبي ﷺ من قبره مخالفة لهذه الآية الكريمة.

عماد: وكيف هذا؟

محب: من المعلوم أن الله خلقنا من العدم، وهذه هي الموتة الأولى، ثم بعد ذلك نموت في الدنيا واحدة، وبعد الموت حياة أخرى؛ فالقول برجوع النبي ﷺ أو الرجل الصالح من قبره فيه مخالفة ظاهرة لهذه الآية، فتكون ثلاث موتات وليست موتتين.

عماد: كلامك جيد! ولكن لعل رسول الله ﷺ يغيث بروحه وليس بجسده؛ وكذلك الأولياء يغيثون بأرواحهم.

محب: أخي عماد! أنا لا أدري حقيقة من أي تأتي بهذه الأفكار! المسألة سهلة يسيرة، الله خلقنا وعلينا إفراده بالعبادة؛ فما الحاجة للاستغاثة بغيره وهو موجود سبحانه وتعالى، ومع هذا تأمل هذا الحديث الشريف.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن أصحاب النبي ﷺ سألوه عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران: ١٦٩) فقال ﷺ: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا". (٢) (يتبع)

●●●

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة رقم ٨٨٣، وابن ماجه، كتاب ما جاء في الجنائز رقم ١٦٢٦.

(٢) أخرجه مسلم.